مجلة الآداب واللغات
جامعة أبي بكر بلقايد،تلمسان / الجزائر
ISSN : 2676-1963/ EISSN: 2676-167X
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/416

صراع الهوية في المجتمع الجزائري -رواية ضمير الغائب "الشاهد الأخير على اغتيال مدن البحر"، لواسيني الأعرج أنموذجا-

The identity conflict in Algerian society –the Third person "the last witness of murdering sea cities ", Wassini Al Aaradj novel's -model

حنبلي سميرة *، جامعة أبو بكر بلقايد-تلمسان- الجزائر :samira.hanbli@student.univ-tlemcen.dz
بن جماعي أمينة، جامعة أبو بكر بلقايد-تلمسان- الجزائر alayamoune@yahoo.fr

تاريخ المقال

الإرسال: 2021/05/01 القبول:22-11-2022 النشر:15-05-2022

ملخص البحث

يسعى الروائي لتصوير الواقع ومعالجته بطرق مختلفة، وأساليب متنوعة،كلها تسعى لهدف واحد، هو إصلاح الواقع والمجتمع، والرقي بالإنسان وعالمه، وهي وظيفة الأدب عامة. وذلك من خلال استثمار العديد من العناصر للتعبير عن رؤيته للعالم. فينتقي مفرداته، ويراعي تراكيبه، باعتبارها دليل مجتمعي. ويعتني بشخصياته، ويفعّلها لبثّ أفكاره المتعدّدة. كما يحرص على ترسيخ الدلالات من خلال المكان والزمان، وتقنية الصمت ونظام المقاطع، إضافة لتوظيفه للرمز، والتراث، والأسطورة، ومختلف المتفاعلات النصية، التي تسهم في تصوير العلاقة القائمة بين الأنا والآخر، وبين الحلم والواقع، وتمكّن من استقراء الواقع الاجتماعي والسياسي والإيديولوجي، وتسمح بالتعبير عن مجموعة من الأسئلة القابعة في أعماق أفراد المجتمع...، لتعيدها إليهم على شكل بنى جديدة، تشمل رؤى جديدة، ومحاولات توعوية، وربما حلول وتحديد طرق الخلاص والنجاة. وهو ما سنحاول توضيحه عبر هذه الدراسة.

المقالة عبارة عن قراءة لكشف الصراع الحضاري، الذي عايشه ولا يزال يعيشه المجتمع الجزائري إلى وقتنا الحالي، ودوره في الواقع المرير، والتدهور الشديد الذي يشهده المجتمع، على المستوى الديني، الأخلاقي، والاجتماعي، ... وإظهار آثاره على مختلف المستويات، التي انعكست

الكلمات المفتاحية

رواية
ضمير الغائب
واسيني الأعرج
الهوية
صراع.

* المؤلف المرسل

على الفرد والمجتمع.

Abstract

Novelists have attempted to portray reality and deal with it in a variety of ways and methods, all of which seek the same goal of reforming reality and society, improving man and his world and the function of literature in general. And that is through invests many elements to express his vision of the world. He selected his vocabulary. It also takes care of his characters and activated to carry multiple ideas. And kept on consolidating the semantics through space and time, silence, and system sections, adds to the heritage and legend, various reactants scripts that contribute to its purposes devoted text. And is what we will try to explain it through this study.

The article is a reading to reveal the civilized conflict, which the Algerian society has experienced and is still experiencing to the present time, and its role in the bitter reality, and the severe deterioration that society is witnessing, on the religious, moral, and social levels, ... and to show its effects on various levels, which were reflected on the individual and society.

Keywords

Novel
the Third person
Wassini El Aaraj
Identity
Conflit.

1. مقدمة:

شهد العالم تغيّرا كبيرا نتيجة التطورات العلمية والتكنولوجية والإنسانية، والتي أدّت إلى تغيّر البنية الاجتماعية العامة، ممّا أدّى بالضرورة إلى خلق بنيات سردية مبدعة في الرواية العالمية، تستجيب لمعطيات الحياة الجديدة، التي فرضت على الروائي التمرد على البناء الفني المألوف، وخلق تقنيات وعوالم جديدة لتجسيد هذا الزخم الحضاري؛ حيث إنّ (هذا الفن الأدبي كغيره من الفنون الأخرى لا ينمو في الفضاء، بل لا بد له من بيئة معينة. كما أنّه بتناولنا لموضوع الرواية لا بدّ من التطرّق إلى المرجعيات الأخرى، من مثاقفة وارتباط مع المشرق العربي ومع التراث السردي بصفة عامة، هذا فضلا عن الواقع السياسي والاجتماعي للمجتمع الجزائري) (مفقودة، 2008، صفحة 18). وبذلك لا يمكن للرواية إلاّ أن تكون رصدا لواقع معين. وذلك كونها تعتبر (الشكل التعبيري الأقدر على التقاط صور وعلامات التحولات، من خلال كتابة التاريخ العميق الخفي الممتزج بالزمن المعيش، وبأسئلة الإنسان العربي داخل تاريخه الحديث مجالا لمكاشفة الذات واجتراح الحوار وطرح الأسئلة الصعبة عبر الرصد التفصيلي لتغيرات المجتمع والإنسان والفضاء.) (برادة، 1996، صفحة 56) وبهذا تتيح للدارس فرصة دراسة مختلف الظواهر التي طرأت على المجتمع، وقد حدد "هيجل" علاقة الأدب بالمجتمع في قوله: "الآداب تعبر وبشكل كامل عن مجتمعاتها، وأنه بإمكاننا فهم هذه المجتمعات من خلال الدراسة الواعية لآدابها." (دروش، 2013، صفحة 38) فهي تصوّر العلاقة القائمة بين الأنا والآخر، وبين الحلم والواقع، وتستقرئ الواقع الاجتماعي والسياسي والإيديولوجي، وتعبّر عن مجموعة من الأسئلة القابعة في أعماق أفراد المجتمع...، لتعيدها إليهم على شكل بنى جديدة، تشمل رؤى جديدة، ومحاولات توعوية، وربما بعض الحلول والطرق للخلاص والنجاة.

حاول الروائيون عامة تصوير الواقع ومعالجته بطرق مختلفة، وأساليب متنوعة،كلها تسعى لهدف واحد، هو إصلاح الواقع والمجتمع، والرقي بالإنسان وعالمه، وهي وظيفة الأدب عامة وهذا ما أكّده عبد الحميد بن هدوقة، الذي جعل "وظيفة الكتابة الإبداعية لا تتوقف عند حدود الموقف العلمي، أي لا تكتفي بتقديم صورة معرفية أدبية صادقة عن الواقع، كما عند الطبيعيين، بل تتعداه من خلال رؤية ملتزمة هادفة إلى تغييره، فالأديب في نظره يجب أن يكون ذا تأثير في مجتمعه." (سعدي، 2009، صفحة 43) وهذا ما يفرض على الروائي بالضرورة الاستعانة بلغة جميلة، وأسلوب أنيق، يجمع فيه بين الواقع والخيال، ليخلق عالما مناسبا للفكرة والرؤية التي يريد طرحها، فتكون بذلك: "الرواية عمل فني يفترض فيها أن تحتوي نظاما فكريا معينا أو رؤية كلية أو جزئية للحياة تصوغها وفق معايير فنية تجعل منها في النهاية كيانا فنيا يجوز وصفه بالرواية." (خرفي، 2013، صفحة 145) أي أنّها تجمع بين الجانب الموضوعي والفكري الذي يجعل منها روايه هادفة ذات تأثير على الوعي الجمعي. يسهم في التغير الاجتماعي الايجابي والتقدمي. وبين الجانب الجمالي الفني الذي يزيد من مقروئيتها، وبالتالي مدى تأثيرها.

وهذا ما سنحاول توضيحه من خلال رواية "ضمير الغائب" للروائي "واسيني الأعرج"، الذي خلق

عالما خياليا، صوّر من خلاله الصراع الحضاري، الذي عايشه ولا يزال يعيشه المجتمع الجزائري إلى وقتنا الحالي، وكشف عن آثاره على الشعب الذي عرف بشموخه، وتمسكه بقيمه، واعتزازه بعروبته، بعد أن لحق به العار، وطُعن في قلبه، وفقد شرفه وعزته، نتيجة الواقع مرير، والتدهور الشديد للمجتمع، تحت وطأة غزو فكري وثقافي بمسمى التطور.

جسّدت الرواية عالما يتوغل فيه القارئ بسلاسة، ويعيش من خلاله كل الأحاسيس والأفكار، متفطنا بذلك لسوداوية الواقع الجزائري المعاش. ويكتشف العالم المحيط به على حقيقته، بما في ذلك الأشياء النفسية والحسية ليصل بذلك إلى قلب المتلقي ويؤثر عليه. وهو ما عبّر عنه "ابن رشد" في ترجمته لكتاب "الشعر لأرسطو "حيث قال: "المصور الحاذق يصور الشيء بحسب ما هو عليه في الوجود. حتى أنّهم قد يقرّون الغضبان والكسالى مع أنها صفات نفسية، كذلك يجب أن يكون الشاعر في محاكاته يصور كل شيء بحسب ما هو عليه حتى يحاكي الأخلاق وأحوال النفس." (دروش، 2013، صفحة 33) فقدعكس الكاتب تطور الفكر السياسي والاجتماعي من خلال الإشادة بالماضي، والرغبة في توثيق العلاقة به، والسخط والثورة على الحاضر، والخوف من المستقبل الذي تنبأ له بالكسوف الأكيد، مستعينا في ذلك بمختلف العناصر الروائية لتحقيق ذلك، ونذكر من ذلك مايلي:

1. رمزية الشخصيات:

قام الروائي باستقراء الواقع الجزائري، والثورة عليه، رافضا ما آل إليه الوضع بالبلاد من فساد نتيجة الاحتكاك الثقافي، الذي رفضه بداية، ثم استقبله بصدر رحب. وذلك باعتماد شخصيات متعدّدة سمحت له بإبراز أهم المواقف التي شهدها المجتمع حول هذا الغزو الثقافي، والتي شكّلت أهم أقطاب الصراع الحضاري القائم بالجزائر، وهذا بغية **(اختزال وإبراز مميزات الطبقة الاجتماعية، وتصاعد قيمة الفرد في الحقب التاريخية، ودورها الفاعل في حركة المجتمع.)** (عباس، صفحة: (149-150).) أو بمعنى آخر تصوير دور كلّ فئة في مسار هذا الصراع الحضاري، ومدى تأثيرها على مختلف المجالات التي تمس الفرد والمجتمع، فرمز الروائي للماضي بشخصية "المهدي". أمّا الفئة القليلة الرافضة للوضع، والمخلصة للماضي فقد صوّرها في شخصية "عمي البوحفصي" و"أم الحسين" اللذان لم يتأثرا بالزخم الحضاري، أمّا "ساسفندا" فمثلت الجزء الذي يساير ويرضخ للوضع، والراغبين في أخذ بعض من ثقافة الأمم الأخرى، أي صراع القديم مع الجديد، ليجسد أيضا صورة "الأنا" لما تنصهر في الآخر من خلال شخصية "صاحب النزل"، أمّا "الموظفين"، و"الكوميسير" و"البواب"، و"ميموني"، و"المحامي" و"القاضي"... وغيرهم، فمثلوا الأثر السلبي لهذا المنحى الحضاري الجديد. بينما مثّل "الدليل" الأيادي الخارجية التي تسيّطر على البلاد تتحكم بالمجتمع. ليتجلى الصراع الحضاري من خلال شخصية البطل "الحسين"، على اعتبار أنّ "**السارد شخصية متخيّلة (...) يتوسّل به المؤلف وهو يؤسس عالمه الحكائي، لينوب عنه في سرد المحكي، وتمرير خطابه الإيديولوجي وممارسة لعبة الإيهام بواقعية ما يروي.**" (بوطيب، شتاء 1993، صفحة (68-69)) وعليه؛ جعل منه شخصية صحفية، مثقفة وواعية، تتميز بقدرتها على تقصي الأخبار، واستقراء الواقع، وكشف الحقائق، وفضح المستور، وبالتالي فضح خبايا الصراع الحضاري القائم بالبلاد، وكشف نتائج الغزو الثقافي

الذي يسعى للقضاء على الهوية الجزائرية عن جهل أو تعمد...،

حيث ثار الحسين على الواقع الاجتماعي المتدهور، وبدأ بتقديم استقالته من الجريدة، وتحديه للكل وإصراره على إكمال التحقيق الذي يرفضه الجميع، محاولا أن يربط بين جيله وجيل أبائه، الذين استشهدوا في سبيل الوطن، حتى لا يكون الدم المهدور خسارة. وأكّد على ذلك من خلال شخصية "حميد"، الذي استمر على طول المسار الروائي في قول: "خسارة الدم اللي راح، خسارة الدم اللي راح." (الأعرج، 2001، صفحة 14). وأعاد بعث "المهدي" من جديد، الذي كان يتجلى للحسين، ويتحاور ويتشاور معه. كتعبير واضح عن الصراع الفكري للحسين مع واقعه المظلم، ورغبته في التواصل مع الجيل السابق، والتاريخ المشرف، والنموذج الحقيقي للمقاومة والتمسّك بالهوية والوطن، ورمز التضحية لأجل الوطن. وتأكيد صريح على أنّ "علاقة هذا الجيل بالجيل السابق علاقة صراع وتصادم وعلاقة امتداد وتواصل." (عبيدات، 2010، صفحة 124) فالحسين لم يرفض التطور، وإنّما يشترط فيه الوعي، وامتداد الحاضر في الماضي.

2. رمزية المستشفى التجميلي مهد الهوية الجديدة:

اختار الكاتب بعناية فائقة الفضاء الذي يحتضن أحداث نصّه، وراع جيدا بنية المكان "**بوصفه شبكة من العلاقات والرؤيات ووجهات النظر التي تتضامن مع بعضها**." (بحراوي، 1990، صفحة 32.) لتجسّد أفكاره ورؤاه، ليكون بذلك الرابط بين الواقع والمتخيّل، وصلة الوصل بين القارئ والكاتب.

ولعلّ "المستشفى التجميلي" أحد أهمّ الأماكن التي حقّقت له ذلك، فمن خلاله استطاع أن يرمز للغزو الحضاري ونتائجه، ويطرح مختلف جوانب الموضوع ويعالج قضاياه المتعدّدة، ويكشف عن تأثيراته السلبية على الهوية الجزائرية، ويصوّر حجم المأساة، والخطر الذي يهاجم المجتمع في غفلة منه إذ أنّ "المستشفى التجميلي الجديد الذي بني فجأة في عمق المدينة." (الأعرج، 2001، صفحة 15) يهدف إلى غزو ثقافته وقيمه، وعقائده، ف "المسألة تتجاوز قدراتكم العقلية وأكثر عمقا وتعقدا مما تتصورون. " (الأعرج، 2001 صفحة 187). حيث أنّ أهم مؤسسات الدولة –المحكمة التي تمثل السلطة القضائية- صارت لا تعطي أي قرار بدون "الدليل". والسبب أنّ (القانون لا قيمة له بدون رجال يسهرون على حمايته). (الأعرج، 2001، صفحة 152) وحتى الصحافة التي تمثل السلطة الرابعة للبلاد تسيّر بأمرهم "اطلب من هذا الفوق أن يزكي المشروع". (الأعرج، 2001، صفحة 22)فهم من يحدّدون تحقيقاتها المسموحة، ويرفضون كل ما يقف أمامهم، أو يكشف حقيقتهم، مثلما رفضوا التحقيق حول المستشفى التجميلي "لكنهم رفضوا بقوة وبرفضهم زادو من فضولي." (الأعرج، 2001، صفحة 15) فقد منع المسؤولين أي محاولة للبحث عن الحقائق "كل من طلب انجاز تحقيق حوله إما طرد أو أحيل إلى صفحات الإعلانات والوفيات وربما... الأرشيف." (الأعرج، 2001، صفحة 128) ولهذا ربّما انتهج الناس طريقة الصم البكم العمي ف"البحث عن الحقيقة صعب ومكلف ولهذا كل الناس يتفادون ذلك." (الأعرج، 2001، صفحة 91) ليكون بذلك هذا

المستشفى التجميلي الصورة المصغّرة لواقع متدهور، ووقائع مريبة تتطلّب الانتباه والحيطة للنجاة، والمفتاح الأساسي للنص الذي مكّنه من ولوج عقول القراء، وإزالة الغشاوة على أبصارهم. ..

أمّا العمليات التي تجرى به، ما هي إلاّ عملية مخاض لولادة جيل جديد، لا يحمل أي علاقة بالماضي الزاخر بالعادات والتقاليد، والقيم الدينية والاجتماعية. ولهذا نجد أنّ (المستشفى التجميلي الجديد بُني في قلب أهم شوارع المدينة، سعته قد تتجاوز هذه الحدود الصغيرة وسَيَلْتَهِمُ في وقت قريب الشوارع والبنايات والأزقة القريبة). (الأعرج، 2001، صفحة 13) و"يقولون أنّ مشروع المستشفيات سيعمم في كل المدن والقرى." (الأعرج، 2001، صفحة 167) فالخطة تقتضي الوصول إلى اندثار الهوية الجزائرية العربية اندثارا تاما.

لكن بطبيعة الحال؛ يجب أن يشعر الشعب دائما أنه عربي، ومسلم، ويختلف عن الغرب، لذا اقتضى الأمر أن يركزوا على الجوهر في البداية، ويتركوا له المظاهر فقط، مثل (المستشفى الذي كان في الخارج يبدو رائعا ومخيفا. صمم على شكل قبة، أو قلعة دائرية، احترمت فيها التقاليد الإسلامية للفن المعماري الأعمدة، المنمنمات، تركيب الحيطان الزجاج المعشق بالذهب، الألوان الفسفورية المشعّة، الزرابي التقليدية التي تمتد حتى الخارج لتغطي ممرات الحديقة، وتعطي الانطباع بأننا أمام قصر عربي قديم. كلمة مستشفى تجميلي كتبت بخط كوفي رائع بمجرد أن تتخطى باب الحديقة تبدأ الكتابات كلها باللغة الانجليزية والفرنسية والاسبانية. كل المعاملات تتم بهذه اللغات. حركة الناس غير عربية بتاتا). (الأعرج، 2001، الصفحات 178-179) فشكل "قبة" اختير من قبل الكاتب بعناية، ليرمز للخرافات التي ستنشر مثل ما حدث مع قبور الأولياء الصالحين، أمّا الوصف الدقيق لتناقض المعالم الخارجية، والتعاملات الداخلية، فحرص منه على تصوير حقيقة الغزو الذي طال المجتمع، فلم يبقى من هوية المجتمع إلّا المظاهر الخادعة أمّا الجوهر فصور مطابقة للغرب وما أراده للشعب.

يواصل "الحسين": (أثارتني الحيطان التي زوقت بشعارات وإعلانات الشركات متعددة الجنسيات. الشركات البترولية وأسماء أكبر المقاولين العالميين. أسماء البنوك. شدتني إليها بعنف أكثر لكن بغرابة أقل، صور الأسلحة الذرية.أكبر مساجد العالم. أجمل الكنائس لم أفهم سر هذه الخالوطا.) (الأعرج، 2001، صفحة 183) وهذا تعبير واضح للأسف عن ما آل إليه الوضع، نتيجة هذا الغزو الحضاري.

أول ما يقوم به المستشفى هو نزع الأنوف، أي نزع الرجولة، والنخوة، ليصبح الفرد بعدها يُقاد كالبهيمة، لا يعي شيئا "يهجمون على الحشائش بنهم يملأون أذرعهم و أفواههم. يأكلون. تمر عيونهم وتغيب ملامح أوجههم. ثم يخرجون من زجاج الأبواب بدون أنوف ولا ذاكرة إلى قلب المدينة." (الأعرج، 2001، صفحة 186) كل شيء مدروس ومخطط له، إذ "يبدو أنّ صانعي هذه الآلة الغريبة، راعوا كل شيء.حتى أدق التفاصيل التي تبدو لنا وكأنها تفاصيل زائدة وتعب مضاف." (الأعرج، 2001، صفحة 187) استراتيجياتهم هي نفسها السياسة الاستعمارية المنتهجة منذ القدم، تعتمد فصل الشعب عن جدوره وأواصره.

لتأتي مرحلة تغيير العيون، فبعد نزع الأنوف ونسيان الفرد شخصيته وهويته، سيصبح قابلا ليكون في خدمتهم بدون أي عوائق وحواجز داخلية. (الشرط المطلوب، هو أن يمضي الذي ستجرى له العملية ما لا يقل عن عشر سنوات بدون أنف. وكتحصيل

حاصل، العملية لا يتمتع بها الذين يحملون أنوفا طويلة يوجد في المدينة من تتوفر لديه هذه الشروط كلها. إنها المدينة المقتولة). (الأعرج، 2001، صفحة 190) وهي عملية تتم في الطابق الأعلى الذي يمثل مرحلة ثانية من مراحل ونتائج هذا الغزو الثقافي، (إنهم يغيرون العيون يا مريم حتى العيون الجميلة أفسدوها ببؤسهم). (الأعرج، 2001، صفحة 189) وهو يقصد بتغييرهم العيون أنّهم غيروا نظرة الأفراد للأمور، وكذا المفاهيم والرؤى والوعي، ليقوموا بتغييرها بأخرى مزيفة زجاجية تخدمهم وحدهم. (الغريب في العملية، أنّ هذه العيون لا ترى إلاّ في حدود ما تتلقاه من تعليمات صارمة ليتحول إلى جرذ بعينين زجاجيتين). (الأعرج، 2001، صفحة 192) وهي بداية مرحلة التحكم في الشعب ليتصرف وفق رغبتهم، ويعمل تحت إمرتهم، وبغية تحقيق مآربهم وغاياتهم.

تتحادى معها مرحلة تغيير الآذان ب"أذان طويلة جدا صنعت من البلاستيك المقوى في شكل يقترب إلى حد بعيد من أذني الحمار." (الأعرج، 2001، صفحة 193) شكلها يوحي ويؤكد على نظرة المتحكمين بالمستشفى –الغزو- للشعب، بداية يأكل الحشائش، ثم تغير عيونه بعيون تشبه عيون الجرذ، ليتموا الشكل بأذني حمار، وكأنه حيوانهم الأسطوري الذي طالما حلموا بامتلاكه واستعباده. ف"المستشفى قادر على تغيير كل شيء. الحضارة يا الحسين. من هنا لسنة ألفين سيتوصلون إلى تغيير الإنسان بكامله وتبديله بإنسان مجهز في المخابر". (الأعرج، 2001، صفحة 196) يخدم مصالحهم وأهدافهم وفقط.

أما تغيير الأمخاخ فهو أمر مختلف، حيث أنّ نخبة المجتمع فقط، التي يسمح لها بذلك، ليستغلوا أفكارها وانجازاتها فهي (تعلب في صناديق زجاجية معشقة بالذهب والبلاتين بعد أن توضع وسط القطن وباهتمام كبير يقولون أنّ الأمخاخ ترسل للبحث فقط وتعاد من جديد لكن الذين يعرفون المدينة جيدا، يؤكدون أنه ولا مخ من الأمخاخ التي أرسلت أعيد إلى المستشفى). (الأعرج، 2001، صفحة 193) هي ثروة قيّمة يجب استغلالها والمحافظة عليها مهما كلف الأمر. "يقولون أنّ من يخضع للعملية ينسى ذاكرته وأصدقائه وأهله." (الأعرج، 2001، صفحة 195) سعيا منهم للقضاء على كل ما يربطه بالوطن، مما يساعدهم على تحقيق غاياتهم، واستغلال إمكانياتهم وقدراتهم.

3. بداية ضياع الهوية:

من خلال هذا المتن الروائي حاول "واسيني الأعرج" التأكيد على مخاطر هذا الصراع الحضاري وتجلياتها في المجتمع، على اختلاف طبقاته الثقافية، والعمرية والجنسية، سواء على لسان "الحسين" أو عن طريق بعض الشخصيات التي صوّر من خلالها الوضع المزري للبلاد.

وسنبدأ بذكر بعضها بداية بالمرأة نظرا لمكانتها، ودورها الكبير والخطير في المجتمع، وفي تنشئة الأجيال، لكن مع ذلك لم تلقى أي اهتمام من قبل السلطات الجزائرية، والمجتمع عامة، فقد عانت الويلات من ظلم، وقهر، وتهميش، حتى "أم الحسين" زوجة شهيد الوطن تعاني الأمرّين: (تجلس على حافة الوادي، تغسل الأقمشة المتسخة وأغطية البورابح والكاشات والحصائر وتبكي رجلاها تحولتا إلى قديد من جراء انتعال حذاء ميكا العتيق. تعبت في بحثها من دار إلى دار لغزل الصوف. ومن بلدية إلى بلدية لتعيد لك إشعاع عينيك اللتين أغمضتا قبل الأوان.)

(الأعرج، 2001، الصفحات 65-66) هذا حال زوجة الشهيد فيمكننا أن نتخيل حال الباقيات. اللاتي رحنّ يبحثنّ عن مختلف السبل والطرق للعيش، في عالم أهملهنّ، ولم يرحم ضعفهن، وللأسف أول ما تخلّين عنه كان الحياء، الذي أضحى حاجزا أمامهن، مثل: "ساسافندا التي كانت تستحي من أن تكلم رجلا نعرفه صارت أكثر حرية. وقد كانت تقول دائما أنّ تكوينها السيئ هو السبب." (الأعرج، 2001، صفحة 181) تخلت عن سترها وحيائها، ومبادئها، وقيّمها ودينها، بعد أن أصبحوا مظهرا من مظاهر التخلف والبداوة. لترتدي للأسف لباس التحرر، والتطوّر العكسي، ممّا أدّى بها إلى عالم لا يحترمها، ولا يكرّمها. فأصبح الرجل يفضل علاقاته بها، علاقات عابرة محرمة، بل"بإصرارها على المؤسسة الزوجية، فقدت قيمتها كامرأة. حالة جنون ربما." (الأعرج، 2001، صفحة 163) ليلجن بعدها عالم الدعارة لأجل لقمة عيش قذرة، "تبعن اللذة وأجسادهن مقابل كسرة محروقة على تنور قديم." (الأعرج، 2001، صفحة 39) وتصبح صورتها الجميلة في ذهن الرجل وهي "تشعل سيجارتين رديئتين تناولني واحدة وتطلب مني أن أضع الأخرى بين شفتيها." (الأعرج، 2001، صفحة 31) مثل ما تذكر "الحسين" صورة "مريم" حبيبته المقتولة، وهي في أفضح حالات التنكر لحيائها.

الأمر الذي يطرح تساؤل أكثر أهمية، كيف لنساء فقدن قيمتهن، وعفافهن، وأخلاقهن، تحت شعار الحضارة والتطور، أن يربّين الأجيال الصاعدة؟ رجال الغد! وكيف سيكون مستقبل مؤسسيه بذرات فاسدة؟ أطفال "يعدون بحبات الرمل، اليتامى وغير الشرعيين الذين يرمون بهذا المكان في سن مبكرة." (الأعرج، 2001، صفحة 33) فبدل دخولهم إلى المدارس لأجل التعليم والتوعية، وبناء مستقبل زاخر ومشرق، أصبح همهم البحث عن مصدر رزق يقتاتون منه: (بعضهم يدفع عربات الزريعة والكاكاو. بعضهم يبيع أوراق الحظ، والويسكي والمخدرات. وآخرون احترفوا صنعة قنص الجيوب لا تعلم من أين يفاجئونك بتوددهم: عمي تحب الويسكي. الكاكاو والزريعة. عمي تحب نرفدلك الحقيبة. تحب نوري لك الهوتيل وإلا الحمام وين تبات. أو بكل بساطة يمارسون القوادة علانية.) (الأعرج، 2001، صفحة 34) أمّا بعضهم الآخر فيلجأ إلى التهريب، مثل: "الحسين" الذي قال: "لا ترى عيناي غير ما يمكن أن يؤخذ من الدكاكين الصغيرة ويهرب من وراء الحدود القريبة. الحاجة بنت الكلب لا ترحم." (الأعرج، 2001، الصفحات 62-63) كما أدّى الفقر أيضا إلى ظهور "القتلة والمجرمون والذين يبيعون ويشترون ويبدلون العملة الصعبة، والذين يحلّون ويربطون. وستمتلئ الشوارع والأرصفة المظلمة بالذين يتضورون جوعا وعطشا." (الأعرج، 2001، صفحة 160) وهذا كله أوحى بمعالم مستقبل تأكّد كسوف شمسه قبل أن نعيشه ويصبح حاضرا مؤلما، نضطر للتعايش مع قسوته ومرارته كلّ يوم.

أما القسم الذكوري في المجتمع وقوامته، فقد عرف مختلف أنواع الفساد، والتدني الخلقي والإنساني، بدءا بطبقته المثالية، المتمثلة بالمجاهدين، الذين تحدّث عنهم الكاتب في قوله: "أيعقل أن يكون ذلك السيد مجاهدا؟ بين يوم وليلة ينتفخون ثم يتحولون إلى أبقار هولندية. السمنة والجهل يبدو أنهما صفتان متلازمتان." (الأعرج، 2001، صفحة 108) فقد تحوّلت مفاهيمهم، وتغيّرت مبادئهم. وأصبح همّهم المصالح الشخصية وملأ الجيوب والبطون؛ ما عاد الأقلية المتمثلة في شخصية "عمي البوحفصي".

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء، وإنّما شمل مختلف شرائح المجتمع، فحتى المثقفين الذين يمثلون السلطة يبيعون هوياتهم ووطنهم (آه الرجل نفسه الذي باع المهدي والبلدة للنار باع الدم بأبخس الأثمان وحول أموال البلد إلى مستعمرة). (الأعرج، 2001، صفحة 108) رجال أنستهم مناصبهم ومصالحهم الخاصة، دورهم الحقيقي ومسؤولياتهم. إلى درجة أنّ (حتى الأكل كان يصله جاهزا في سيارة خضراء، تأتيه من بعيد. والماء يأتيه من صخور الصحارى باردا، باردا زلالا. آلمني كثيرا أهل البلدة حين التفوا حولي ليقصوا على مسمعي غرائب لو وضعت أمام غرائب ألف ليلة وليلة لبهتت هذه الأخيرة أمامها.) (الأعرج، 2001، صفحة 99) همهم الحفاظ على السلطة والمراكز، وتحقيق مصالحهم، بداية بإحاطة أنفسهم برجال يفعلون ما يأمرونهم، ويقولون ما يريدونه، ويخدم مصالحهم، ف "حين طلب منهم الكلام لم يضيفوا شيئا أكثر مما قاله لي. بدا لي في لحظة من اللحظات كأن أدمغتهم كانت معطلة عن العمل." (الأعرج، 2001، صفحة 104) وكأنهم جعلوا من الموظفين عبيدا لهم. ولذا أكّد الروائي على ضرورة التعامل معهم، فحسبه "هؤلاء البشر يحتاجون إلى هزات عنيفة تريهم حدودهم وإلاّ يتمادون لدرجة التصديق بأنهم صاروا عظماء." (الأعرج، 2001، صفحة 99)

كما أرجع الكاتب هذا الأمر إلى تولي زمام الأمور من قبل الأشخاص غير المناسبين، وقد كشف عن ذلك من خلال "الحسين" الذي قال: " لأول مرة، منذ بداية هذه الرحلة أصادف رئيس بلدية يعرف فك الحروف وكتابة اسمه بشكل صحيح." (الأعرج، 2001، صفحة 102) ما يجعلنا نتساءل كيف نتوقع النهوض والتقدم وتسيير البلديات والإدارات بيد أميّين!!!. اجتمعت فيهم صفات الجهل والطمع، والكذب... "نطلب منك قاطبة أن لا تصدق هذا الرجل. أكبر كذاب محترف." (الأعرج، 2001، صفحة 100) فبدل خدمتهم للشعب والسهر على راحتهم يضمرون في أنفسهم الخبث، ويقومون بنقيض مسؤولياتهم، مثل حادثة اللويزات التي تبرعت بها والدة "الحسين" للمنكوبين، وخوفها من أن "يتقاسمها رجال البلدية." (الأعرج، 2001، صفحة 30) ويسرقونها بدل المساهمة في إحدى أكبر نكبات المجتمع، والتي تضامن فيها الفقير والغني، المثقف والأمي، لإرجاع ما ضاع وما هدمته الطبيعة.

كذلك أشار "واسيني الأعرج" إلى أغلب الإداريين الذين لا يتعاملون سوى بالرشوة، في المقطع التالي: "وضع في يدي حفنة من الأوراق الخضراء والزرقاء والصفراء.قال هذه بركة رجال لبلاد." (الأعرج، 2001، صفحة 101) فلا يقومون بمسؤولياتهم وواجباتهم، ولا يمكنهم إسداء أي خدمة أو معروف بالمجان، وكذلك في قول "الحسين": "لكني كنت أدرك أنهم في النهاية سيطلبون مقابلا لخدماتهم." (الأعرج، 2001، صفحة 98) فكل شيء بمقابل "عيناه لا تعرفان من الناس إلاّ جيوبهم وألبستهم." (الأعرج، 2001، صفحة 44) كما لمّح "الحسين" أنّه حتى "ميموني" لم تكن خدماته مجانية في قوله: "حاولت أن أنظر إلى الساعة لكني تذكرت أنّ ميموني سحبها مني." (الأعرج، 2001، صفحة 118) وهذا هو الحال في مختلف الوظائف والمعاملات، حتى وإن كان ذلك في الأصل واجبهم، أو وظيفتهم، بل يمكن حتى أن يعرقلوا لك أمورك، إذا حاولت التحدث عن القوانين أو المسؤوليات. بل أنّنا نجد الأمر منتشرا حتى في الحمام الشعبي، مثلما فعل البطل الذي ذكر ذلك في قوله: "إذا زحلقت في يدي الكياس بعض

القروش يمكنك أن تنعم بقسط آخر من الماء وأن تنزع قليلا من الأوساخ التي أورثتك إياها المدينة." (الأعرج، 2001، صفحة 171) وتستبدلها بأخرى أكثر قذارة، تتغلغل إلى أعماق الجسد، والقلب، وتلطّخ الروح، وتقضي على ما تبقى من معاني الإنسانية.

ولعلّ الأسوأ من كلّ ما سبق، تفشي ظاهرة شهادة الزور، حيث أصبحت الشهادة تباع وتشترى بالمال، كما قال "السارد الذي أكّد أنّ (ألسنتهم كانت تنام في جيب رئيس البلدية يناولهم نقودا على شهادتهم.) (الأعرج، 2001، صفحة 104) يبيعون أنفسهم مقابل بعض القروش، (كل المعلومات التي قدمتها لي البلدية لم تكن صحيحة بتاتا. كانت مقلوبة رأسا على عقب يكذبون يا ابني. إنهم يشربون الكذب في الحليب الذي يأتي من الخارج. يشربونه مع أخبار التلفزيون والإذاعة والمجتمع المنافق.) (الأعرج، 2001، الصفحات 102- 103) وكلّ من يرفض هذه التصرفات أو الخضوع لتلك المعاملات، يكون مصيره التجاهل والتمويه.

وضعٌ أدى بالضرورة إلى تفشي ظاهرة المعرفة: "سأتكفل بإرجاعك إلى الجريدة. أصدقائي يحلون ويربطون." (الأعرج، 2001، صفحة 170) وقد أرّقت هذه الظاهرة الشعب كثيرا، حيث أضحت (في بلادنا هكذا الحياة، بواسطته تستطيع أن ترى من تشاء وبدونه ستبقى عند الباب صغيرا مهانا.) (الأعرج، 2001، صفحة 113) فلا أحد يستطيع القيام بشيء، بدون المرور عبر هذا الدهليز المظلم والطويل، فلابد لكلّ من أراد حقا له، من معرفة وواسطة تغنيه وتجنبه عثرات ملغومة.

الأمر الذي ألجأ البعض إلى اختراع طرق ومحاولات ملتوية كإظهار "الحسين" لبطاقة الصحفي لحل أي موقف قد يتعرض فيه للإحراج أو المعارضة "سأستعمل بطاقة الصحافة عند الضرورة." (الأعرج، 2001، صفحة 94) يتعمد إظهارها لأنها تغير مجرى الأحداث وتكسبه امتيازات خاصة، مثل قوله: (حين لمح بطاقة الصحفي استقام بظهره وترك السيارة تنزلق.) (الأعرج، 2001، صفحة 107) وكأنّ السائق يدرك أنّ تلك البطاقة تؤديه إن هو رفض الأمر- استغلال المناصب-، والأهمّ من ذلك أنها تجنبه أي مخالفة من قبل الشرطة .

أو مثل اعتماده أيضا للتزوير لدخول المستشفى "ارتحت للتزوير الذي لا يكاد يظهر، بواسطتها تمكنت من الانزلاق وراء أبواب المستشفى التجميلي." (الأعرج، 2001، صفحة 178) ليكتشف بعدها أنّ حتى هذا لم يكن إلا بعد سماحهم له بذلك، فلا يمكن 'نجاز أمر إلاّ وقد نالوا مصلحة منهم أو هدف من خلاله.

كما نتبيّن درجة تأزم الوضع حين "تسحب السكاكين، ويتحول الملعب إلى مجزرة، وتحشى الأمخاخ من جديد بمزيد من الذعر البدائي. واحد على شفاه الموت. وآخر يتحسس جروح ظهره ويتمتم." (الأعرج، 2001، الصفحات 119-120) ومردّ ذلك غياب النضج والوعي عند الشباب، الذين لا يفقهون لغة الحوار، ولا حرية الرأي، ولا معنى الديمقراطية، حتى في لعبة!، فكيف الحال بأمر حاسم، أو مرتبط بمناصب وكراسي، تغدق عليهم بالأموال والحسنات!!!. وكأنّ الروائي استشرف ما حدث في فترة التسعينات، من قتل وإزهاق للأرواح.

لم يقتصر غياب لغة الحوار عن فئة الشباب فقط، وإنّما شمل أغلبية أفراد المجتمع، ففي مراكز الشرطة يشمل الحديث جملا لا تليق بالمكان. مثل كلام حارس باب الكوميسير: "لحظة ياوجه الهم. التربية انتاع يماك يا حمار." (الأعرج، 2001، صفحة 128) وقوله أيضا: "ادخل الله يدخل معاك سفود. الكوميسير

يستناك." (الأعرج، 2001، صفحة 129) بل بلغ الأمر النطق بكلمات نابية، ذكر الحسين أنّه (عجز عن تكرارها. فكلها كانت تستفزني في أبي وأمي وفي شرعيتي." (الأعرج، 2001، صفحة 219) ليتعدى ذلك كله، ويصل إلى قاعة المحكمة، الذي كشف عنه قول الحسين: (أنا لم أعد أفهم شيئا في هذه اللغة البذيئة هل أنا في محكمة أم بين أيدي عصابة قتلة.) (الأعرج، 2001، صفحة 258) وهو ما يؤكد على انتشار الفساد، وتدهور الوضع الثقافي والحضاري بالبلاد، وتدني مستوى المعاملات، وافتقاد معاني الحوار، والاحترام، والتقدير،...

ولكن يمكن القول أنّ هذا التدهور أمر بديهي، في مجتمع استطاع أن يجمع بين الخمر والإيمان "لكن خمارة الإيمان كانت قد سحبتني إليها فبدأت أتلذذ بوجوه الناس والدفء، الأدخنة المتصاعدة هنا وهناك ورائحة البيرة العتيقة." (الأعرج، 2001، صفحة 42) مفارقة عجيبة كيف استطاع صاحب المحل أن يجمع بين الخمر والإيمان. ولعلّنا نرجع ذلك للشعب الذي تجاوز كل حدود الإسلام، و لم يعد يهتم للجهر بالمعصية، مثل الصورة التي وردت في النص في السوق، حيث قال البطل: "رجع لينهمك مع الناس الذين يلعبون الورق. اربح اربح. الصفراء تربح. الصفراء تخسر. أنت وزهرك يا المسكين." (الأعرج، 2001، صفحة 64) مبرزا تعالى الأصوات بالمقامرة نهارا، وفي الشارع، وموضحا اندثار المبادئ والشرائع الدينية، التي لم يبقى منها إلّا بعض المظاهر القليلة والمغلوطة أحيانا.

وأيضا إلى ما ذكره الكاتب، حول أنّ "الناس صاروا كالعميان، لا أحد يبصر جاره ولا حتى نفسه." (الأعرج، 2001، صفحة 10) فالكل يتجنب الكل مخافة من المجهول والتبعات "كلهم بدأوا يشيحون بوجوههم في الفترة الأخيرة." (الأعرج، 2001، صفحة 45) علاقات ترتكز إلى القطيعة واللامبالاة، أو المصلحة والانتهازية، بعد أن كان يسودها الاهتمام والمحبة والتآزر، فهاهي "أم الحسين" رغم فقرها، تساعد منكوبي لزلزال "يومئذ فوجئت بأمي تسلخ عنقها من اللويزات السبع وتقدمها إلى صندوق المنكوبين." (الأعرج، 2001، صفحة 30) ففقرها لم يمنعها من مساعدة المنكوبين بل آثرتهم على نفسها وعلى أولادها، عكس ما نشهده اليوم من تدهور في العلاقات الإنسانية وحتى الأرحام، بعد أن أصبحت العلاقات تقوم على المصالح فقط.

5. الخاتمة:

استطاع الروائي أن يخلق عالما متخيلا متقنا حقق من خلاله الغاية من وراء هذا الإبداع الفني، فقد كشف الحقائق المخفية والمسكوت عنها. من خلال تصويره للصراع الذي يعيشه المجتمع الجزائري نتيجة الغزو الثقافي والفكري، والذي نتج عنه تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية عامة، إضافة إلى كشفه مختلف الممارسات التي اغتالت روح الشعب والوطن، وأدخلت البلاد في كسوف لا يزال مستمرا لوقتنا الحالي. وهكذا يمكننا القول أن الرواية قد استشرفت المستقبل، وعبّرت عن واقعنا بتفاصيله الدقيقة.

6. قائمة المصادر والمراجع:

إبراهيم سعدي. (2009). دراسات ومقالات في الرواية. الجزائر: منشورات السهل.

ابراهيم عباس. *تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية، (دراسة في بنية الشكل الطاهر وطار، عبد الله العروي، محمد لعروسي المطوي)*. الجزائر: ANEP.

حسين بحراوي. (1990). *بنية الشكل الروائي، (الفضاء، الزمن، الشخصية)*. بيروت الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

زهير محمود عبيدات. (2010). رواية الاجيال في السرد العربي الحديث. عمان: دار أزمنة.

سوسيولوجيا الادب والرواية 2013عمان الأردندار اسامة للنشر والتوزيع

صالح مفقودة. (2008). *أبحاث في الرواية العربية*. الجزائر: دار الهدى-.

عبد العالي بوطيب. (شتاء, 1993). مفهوم الرؤية السردية في الخطاب الروائي بين الائتلاف والاختلاف. *مجلة فصول ، 11* (4)، الصفحات (69-68).

محمد برادة. (1996). أسئلة الرواية أسئلة النقد. الدار البيضاء المغرب: الرابطة.

محمد صالح خرفي. (27 10, 2013). الديني والاديولوجي في الرواية الجزائرية المعاصرة روايات الطاهر وطار انموذجا. *قراءات ، 5* (1).

واسيني الأعرج. (2001). ضمير الغائب –الشاهد الأخير على اغتيال مدن البحر. الجزائر: منشورات الفضاء الحر.